جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

كلية أصول الدين

قسم العقيدة ومقارنة الأديان

السنة الثالثة ليسانس: السداسي السادس

محاضرات مادة العقيدة الإسلامية

أ.د عمار طسطاس– د.أحلام بلعطار

نقد نظرية داروين

أشرنا في المحاضرة السابقة بعد مناقشة الأقوال المتداولة عند بعض المفكرين، أنّ آدم عليه السلام هو الكائن الإنساني الأول، لكن كيف وجد هذا الكائن؟ هل وجد بطفرة فجائية، أم هو حصيلة تطور تدريجي عبر سلسلة من الكائنات الحيوانية؟ وهل يقبل الإسلام نظرية التطور الداروينية ؟

1– فحوى النظرية الداروينية

يفترض داروين أن أصل الكائنات العضوية ذات الملايين من الخلايا، كائن ذو خلية واحدة ويكون تطور الحياة في الكائنات العضوية، من السهولة وعدم التعقيد إلى الدقة والتعقيد، وتدرجها من الأحط إلى الأرقى والفروق الخلقية داخل النوع الواحد، تنتج أنواعاً جديدة مع مرور الأحقاب الطويلة.

وحسب قانون الانتقاء الطبيعي وبقاء الأنسب، نمت الأنواع القوية التي استطاعت التكيف مع البيئة الطبيعية ومصارعة الكوارث المفاجئة، وتدرجت في سلم الرقي، في حين هلكت الأنواع الضعيفة التي لم يحالفها الحظ في ذلك.

والسبب في ذلك أن الطبيعة وهبت بعض الكائنات عوامل البقاء ، ومؤهلات حفظ النوع، بإضافة أعضاء أو صفات جديدة، تستطيع بواسطتها أن تتواءم مع ظروف البيئة، وقد أدى ذلك إلى تحسن نوعي مستمر، نتج عنه أنواع جديدة راقية كالقردة، ونوع أرقى؛ وهو الإنسان، و هكذا فالقرد و الإنسان ناتجان من نوع حيواني

مفتقد، يُعتبر حسب داروين الحلقة المفقودة، التي ينبغي البحث عنها، و هذا ما يفسر إيراد «داروين» لفكرته هذه على سبيل الافتراض و التخمين. أما البعض الآخر؛ فقد حرمته الطبيعة من ذلك فتعثر وسقط، والطبيعة إذ تهب هذا، وتحرم ذاك لا تنتهج خطة مرسومة ؛ بل تخبط خبط عشواء.

وتقوم نظرية التطور على تدرج وجود المخلوقات على الأرض ولم توجد دفعة واحدة، وهي مخلوقات متسلسلة وراثيا، بطريق التعاقب خلال عملية التطور البطيئة.

2- مناقشة النظرية ونقدها

وقد حظيت أفكار داروين عن التطور والصراع من أجل البقاء باهتمام خاص في فضاء الثقافة العربية الإسلامية ، حيث أصبحت في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين موضع نقاشات بين أتباعها وخصومها ، ومن أهم المفكرين والكُتّاب العرب الذين تأثروا بتلك النظرية: شبلي شميل (1850-1917) وإسماعيل مظهر (1891-1963). فلم تكن نظرية التطور بالنسبة إليهما نظرية بيولوجية فحسب؛ بل نظرا إليها كآلية منهجية حاولا من خلالها أن يعالجا قضايا الواقع العربي، وسعيا عن طريقها إلى القيام بالثورة، ضد الفكر الموروث والثقافة السائدة، وعلى النظام العلمي والديني والسياسي والاجتماعي السائد في مجتمعهما.

وقد انتقد جمال الدين الأفغاني (1838-1897 م) النظرية، معتبرا إياها مناقضة لما جاء به القرآن، و لكن محمد رضا العلامة التقي الأصفهاني لم ير في نظرية التطور ما يناقض حقيقة من حقائق الدين لأن الدين قرر إرجاع الكون و المخلوقات إلى الخالق، و لكنه لم يبين بالتفصيل كيفية الخلق.

يقول محمد رضا : « ليس فيها إلا بيان ترتيب المخلوقات، و كيفية الصنع فيها، و متى كان أهل الدين ينكرون ذلك، و يدعون إن الله تعال خلق الأشياء في وقت واحد خلقا مستقلا عن الآخر؟ و هم يرون الله تعالى بلطيف حكمته و بديع صنعته يخلق الثمر من الشجر، و الشجر من النواة، و لا يجعل العنب حلوا إلا بعدما يجعله حامضا، و لا يجعله حامضا إلا بعدما يجعله مرا ».

وكان حسين الجسر (1845-1909 م) من أوائل الإسلاميين الذين كتبوا عن نظرية التطور، تحت عنوان «الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الإسلامية وحقيقة الشريعة المحمدية ». ولكنه لم يقف موقفاً معارضاً منها إذ رأى أن نظرية داروين، في حال أنه تم إثباتها علمياً، لا تتناقض مع الاعتقاد بوجود الله، وأن الإسلام قادر على

التوفيق بينه وبين العقلانية والعلوم الطبيعية موضحاً ذلك بأنه يمكن تأويل النص القرآني الخاص بالخلق عندما تثبت صحة نظرية داروين علمياً بما لا يدع مجالاً للشك.

أما عباس محمود العقاد (1889-1964 م) فقد دعا إلى عدم الاستناد إلى القرآن الكريم لإنكار التطور، إذ يقول العقاد في الموسوعة: « إنّ الذين أنكروا مذهب التطور يحق لهم أن ينكروه من عند أنفسهم، لأنهم لم يطمئنوا إلى براهينه ودعاواه، ولكنهم لا يجوز لهم أن ينكروه استناداً إلى القرآن الكريم، لأنهم لا يملكون أن يفسروا خلق السلالة الأدمية من الطين على نحو واحد يمنعون ما عداه، وكل ما يجوز لهم أن يوجبوا الإيمان بأن الله تعالى سوى الطين وبث فيه روح الحياة، فصنع منه السلالة التي نشأ منها أدم عليه السلام، فأما أن يحتموا كيفية التسوية، وكيفية النفخ، وكيفية خلق السلالة والزمن الذي خلقت فيه، فهو ادعاء على القرآن، لا يقبل منهم على وجه من وجوه النفي أو الإثبات».

ولكن مجموع الآيات القرآنية ، تفيد معنى قريبا من أن الكائن الإنساني لم ينتج من عملية تطور تدريجي في الكائنات الحيوانية، بل هو مخلوق بصفة خاصة، على نحو استثنائي فجائي، و الأدلة على ذلك كثيرة :

-إن مفهوم الطور القرآني { وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا } سورة نوح /14. يقصد به عملية تكوين الإنسان الفرد من النطفة إلى ميلاده، و نشأته : طفولة و شبابا و شيخوخة و كهولة، وليس فيها معنى ارتقاء الكائن الحيواني و تحوله إلى الكائن الإنساني.

-إن حادثة الخلق في النص القرآني تفيد « الفورية المطلقة » بالنسبة للكائن الإنساني، و هذا ما يفسر تفاجؤ الملائكة و اندهاشهم إذ قالوا : { **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ** } - سورة البقرة /30

و هذا الاستغراب و التساؤل إذا ما وشع في سياق ما اعتيد في انصياعهم المطلق للأمر الإلهي ، إذ هم (يفعلون ما يؤمرون) لم نجد له من سبب سوى ما توفر عليه هذا المخلوق الجديد من جدة في خلقه لمن تكن معهودة في سلسلة المخلوقات»

-إن كلمة « الخلق » التي عبر بها الله عز و جل واصفا فعل إيجاده للإنسان، يدل في « لسان العرب » على : « ابتداع الشيء على مثال لم يسبق إليه »، و الابتداع طفرة وجدة، و من ثم يكون المعنى إيجاد الإنسان بخلق خاص لا نتيجة تحول و تطور.

ومن هذهالأدلة و غيرها يستفاد أن المفهوم القرآني الخاص بخلق الإنسان قريب جدا من معنى أن الكائن الإنساني كائن جديد مستقل في نوعه عن غيره من الكائنات متميز عنها، متفضل عليه من طرف الله عز و جل بخلقه على نحو خاص، والاحتفال به عند خلقه، وإسجاد الملائكة له، وقد يجوز أن يكون التطور بمعناه الداروينى صادقا على الأنواع الحيوانية، و يبقى أمر تأكيد ذلك أو نفيه للعلم. و لكن بالقياس العقلي وحده يمكن أن نجزم مع «عبد المجيد النجار» أنه غير جائز بالنسبة للكائن الإنساني، فلو قارنا بين الأثر النفسي و الاجتماعي لنظرية التطور مع أثر نظرية الخلق الابتدائي المستقل للإنسان، سنجد أن تأثير النظرية الأولى جد سلبي، و غير لائق بمهمة الاستخلاف:

-فشعور الإنسان بكونه مجرد حلقة في سلسلة تطور حيواني عضوي حتمي، و أنه من ثم متساو مع باقي العناصر الكونية من حشرات و حيوانات، فإنه لا ريب سيستشعر ضالته و حيوانية أصله. و هذا ما يهدد قيمه و كرامته و يؤثر سلبا على وعيه بذاته، و ما ينبغي لها من قيم و سلوك.

- و نظرية التطور بقيامها على مفهوم الصراع، و بقاء الأقوى، فإنه ا تؤثر سلبا على النفس و الاجتماع، إذ ما دام الصراع آلية الطبيعة، و به أخرج الإنسان إلى الوجود، فلا ريب أن هذا المعنى لن ينتج إلا العدوانية و التصارع. مما يهدد النسق الأخلاقي الإنساني في الصميم . و معلوم أن النظرية الداروينية بشيوعها في القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين، كانت سندا علميا فلسفيا لحركة الاستعمار، ما دامت هذه الحركة بما تفيده من استضعاف القوي للضعيف منسجمة مع طبيعة الأشياء و الأنواع، و قانون طبيعي سائر في الكون.

- بينما التأثير النفس و الاجتماعي لنظرية «الخلق الابتدائي المستقل » تأثير إيجابي «فالإنسان لما يقع في نفسه موقع الاعتقاد أنه كائن خص من بين سائر الموجودات الكونية بالوجود الطفري المكتمل، وأن مبدأه المكتمل ذلك متمثلا في وجود آدم عليه السلام، إنما هو تشريف له و تكريم، و أنه خلق بداية في أحسن تقويم فإنه لا محلة سيحدث ذلك في نفسه شعورا بقيمته الذاتية و تميزه على سائر الكائنات الأخرى » و شعوره بهذه القيمة و التميز و اختصاصه بالتكريم الإلهي له أثره على سلوكه في الحياة. إذ يستلزم هذا الشعور السلوك وفق أوامر الخالق.

و من الناحية الاجتماعية فإن الإيمان بالخلق الابتدائي المكتمل للإنسان، يثمر القناعة بأن هذا الإنسان الذي خلق مكتملا ينطوي على فطرة ثابتة تستمد ثباتها من وجوده المكتمل، و على أساس هذا الثبات تبنى الحياة الاجتماعية على موازين و قيم ثابتة في الأخلاق و سبل التعامل و نظم العيش، وهي موازين و قيم تتأسس على احترام الإنسان و الإعلاء من شأنه.

من هنا تتبين قيمة المفهوم القرآني للإنسان، و بالنظر إلى واقع الفلسفة الغربية الساقط في ا للأدرية و العبثية، تتضح ضرورة إشاعة هذا المفهوم القرآني ، لتصحيح وعي الإنسان بذاته، و بمهمته و مصيرة.

⟸المصادر والمراجع:

- ابن منظور: لسان العرب.
- الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر، تونس، ط1، 1997 م.
- عبد المجيد النجار: مبدأ الإنسان، دار الزيتونة للنشر، الرباط، ط1، 1996م.
- تشارلس داروين: أصل الأنواع، ، ترجمة : مجدي محمود المليجى، تقديم : سمير حنا صادق، المجلس الأعلى للثقافة، الكويت، ط 1، 2004م.
- محمد سعيد رمضان البوطي: كبرى اليقينيات الكونية ، دار الفكر،دمشق، ط32، 2012م.
- موريس بوكاي: أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية، ترجمة: فوزي شعبان، المكتبة العلمية، بيروت، ط1، 1981م.
- عبد الصبور شاهين: أبي آدم – قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة، دار الاعتصام، القاهرة، ط 3، 2003م.
- عبد المنعم حنفي : المعجم الفلسفي، الدار الشرقية، القاهرة، ط1، 1990 م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

كلية أصول الدين

قسم العقيدة ومقارنة الأديان

السنة الثالثة ليسانس

قيمة الإنسان في العقيدة الإسلامية

ينفرد الإنسان بمنزلة قيمية وخلق مميز لم يخص به أي كائن من الكائنات الأخرى. يقول تعالى في أول ما نزل في القرآن الكريم :{ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ** } (العلق 1،2) . فتخصيص الإنسان بالذكر فى بيان الخلق الإلهي من بين سائر المخلوقات الأخرى التي شملتها الآية الأولى شاهد على التميز القيم ي بين الإنسان الذي خص بمنزلة منفردة، وبين سائر المخلوقات التي خصت بمنزلة أخرى .

وذلك ما يبدو – أيضاً – فيما جاء في القرآن الكريم من احتفال مشهود بخلق الإنسان الأول آدم عليه السلام حيث تردد ذكر هذه الحادثة بين الإجمال والتفصيل مرات عديدة انفرداً في ذلك من بين سائر المخلوقات الأخرى وهو ما ينبئ بمفارقة جلية بين الإنسان وبين غيره من المخلوقات في منازل التقدير القرآني .

وإذا كانت العقيدة الإسلامية تفسر الوجود على أنه ثنائية طرفاها إله خالق وكون مخلوق فهذا الطرف الثاني تتساوى الموجودات فيه من حيث وضعها الوجود ي ، ولكنها لا تتساوى من حيث وضعها القيم ي، فالإنسان والكون طرفان متفاوتان في القدر ،وإن كانا يتساويان في المخلوقية لله .

وقد استجمع هذه المعاني كلها قوله تعالى :{ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** } (الإسراء / 70) .

فالتكريم هو الإعلاء وهو شامل للإنسان بمقتضى مطلق الإنسانية فيه ،غير متعلق بعوارضها مهما كان نوعها .

ومن مظاهر تكريمه : إلهامه أن يسخر البر والبحر لما فيه نفعه ، وأن يسخر ما في الكون ليكون رزقاً له فصار بذلك في مكانه أعلى من مكانة الكون ،وصار أفضل من المخلوقات الكونية التي تشاركه الوجود في عالم الشهادة.

وقد جاء في القرآن والحديث من الإعلاء لشأن الإنسان ،والبيان لتكريمه ما بلغ في تأكيده والاحتفال به مبلغاً ارتقى به إلى أن يصير أساساً من أسس الاعتقاد فيما يمكن أن نسميه بعقيدة تكريم الإنسان ،وهى عقيدة تنبني عليها كل الأوضاع والمعاملات الإنسانية في الشرع الإسلام ي ، وكل تصور أو تصرف فيه استهانة بالإنسان أو بخس لشأنه يكون مناقضاً لأصل عقد ي في الدين ، فما هي مظاهر التكريم الإله ي التي كرم بها الإنسان حتى أصبح الإيمان بأنه كائن مكرم جزءاً من الاعتقاد ؟

لقد خص الله الإنسان بالتكريم في أصل خلقته ،ثم في مسيرة حياته بعد ذلك إلى الأبد ،فخلقه كان من الله خلقاً مخصوصاً متميزاً بالشرف على خلق سائر المخلوقات ،وذاته المادية والمعنوية استجمعت من معاني العزة ما لم يستجمعه كائن آخر ،ثم جاء ترشيحه لحمل الأمانة متمثلة في التكليف يترجم على علو شأنه ورفعة مقامه ، ثم اختص بالتعبد من قبل الله – وحده – خلال مسيرة الحياة كلها ؛ضماناً لدوام العزة وتحقق الرفعة ،وتوج كل ذلك بالخلود في الحياة الأخرى حيث جعل الله الموت مرحلة انتقال من حياة دنيوية زائلة إلى حياة باقية ،وكرم الإنسان بما جنبه من الفناء المطلق الذ ي هو علامة الضعة والهوان ،تلك ه ي مظاهر التكريم الإله ي للإنسان التي سنتناولها بالبيان فى العناصر التالية:

1 – شرفية الخلق

لقد أفاض القرآن الكريم والحديث الشريف في الحديث عن خلق الإنسان الأول آدم عليه السلام في معرض الوصف والإخبار ،وفى معرض المنة والتفضل والاعتبار ،وهو الأمر الذي لم يحظ به أي مخلوق آخر دلالة على علو الشأن وجلالة القدر ،فإن الاحتفال بميلاد المولود ،وإعادة ذكره باستمرار علامة على رفعة قيمته الذاتية .

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : **{ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ }**(ص/75) . فالآية تشير إلى أن الإنسان خلق بيد ي الله علامة على التشريف والتعظيم له ،إذ أن العظيم الشأن المقدر للأمور والمسيطر عليها لا يتولى بيديه إلا الأمر الكبير القدر الرفيع القيمة ،وهذا المعنى متحقق في الآية ،إذا حملت على التأويل كما هو الأرجح في ميزان تنزيه الله عن مشابهة الخلق بالأعضاء ،حيث يحمل الخلق باليدين على العناية الشديدة كما ذكره الراز ي حيث يقول :" إن السلطان العظيم لا يقدر على عمل شيء بيده إلا إذا كانت غاية عنايته مصروفة إلى ذلك العمل .

وفى معنى شرفية الخلق جاء قوله تعالى أيضاً :{ **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ،فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** } (ص / 71 – 72) .

وإذا كان النفخ من روح الله غير محمول على معناه الحقيقي كما توهمه بعض الحلوليين فذهبوا إلى أن الإنسان حل به جزء من أجزاء الله تعالى ،فإن "إسناد النفخ وإضافة الروح إلى ضمير اسم الجلالة تنويه بهذا المخلوق " الذي خصه الله تعالى بعنصر شريف في تكوينه هو عنصر الروح الذي أضافه إلى نفسه تعريفاً بشرفه وقدسيته.

وفى هذا السياق الذي يظهر فيه الله تعالى عنايته بخلق الإنسان وتقريبه منه ،يندرج ما جاء منه إخبار إلهي بأن الله سيخلق كائناً خليفة له في الأرض ،إذ قال الله في مقام إعلام الملائكة بخلق آدم :{**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة** } (البقرة :30) ،فتخصيص الله للإنسان بأن يكون خليفته في الأرض ينفذ أوامره ونواهيه في مباشرته للكون يحمل من التشريف وإعلاء المقام شيئاً كثيراً ،إذ الخليفة تتحد منزلة شرفه وعلوه بمنزلة مستخلفه ،فما بالك بمن كان مستخلفه الله جل شأنه .

2– **حسن التقويم** :

قال تعالى :{**لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم** } (التين / 4) .

والتقويم هو التعديل والتسوية ،فيكون حاصل الآية أن الإنسان خلق على درجة رفيعة هي أرفع الدرجات فى بنيته : اعتدالاً وانسجاماً وتسوية ،فكان بذلك حائزاً على أرفع الدرجات من التكريم الإلهي بالنظر إلى التكوين الذي خلق عليه .

إن قيمة كل شيء من حيث بنيته ترتبط بمدى تحقيق تلك البنية للغرض الذي من أجله وجد ،فكلما كانت البنية أكثر تحقيقاً للغرض ارتفعت القيمة ،والعكس صحيح ،وقيمة البنية في الأشياء تتبع قيمة الأغراض المجعولة لها فكلما كان الغرض رفيعاً كانت البنية إذا ما أدت إلى تحقيقه رفيعة القيمة ،وهكذا تتفاوت الأشياء في قيمتها من حيث تكوينها تفاوتاً أولياً بحسب تفاوت أغراضها ،وتفاوتاً ثانياً بحسب تأديتها لذلك الأغراض .

إن المقصود بالتقويم في بنية الإنسان هو التقويم الشامل الذي يتناول كلاً من : البنية المادية ،والبنية المعنوية ، فكلامها خلق على أحسن تقويم ،سواء بالنظر إليهما فى ترابطهما ووحدتهما في تكوين الإنسان .

وإذا كانت البنية المادية للإنسان على هذا النحو من الرفعة لأداء مهمة الخلافة كما بنيت الأمثلة المذكورة ،فإن البنية المعنوية هي أعلى شأناً فى ذلك ؛لأن هذه البنية هي التي تتقوم بها ماهية الإنسان ،وهى التي تدبر سيرة الاستخلاف ،وتسوق الجسم لتنفيذ تدبيرها .

ومن مظاهر الرفعة فى العقل : ما خص به من قدرة على الاستيعاب لما هو غائب عن الإنسان من الحقائق سواء ما تعلق بعالم الشهادة ،وهو ما تحقق به السيطرة على البيئة الكونية مجال التحرك الإنسانى .

وقد صور الإمام الرازى ما خص به الإنسان من قيمة ذاتية رفيعة فى التكوين تكريماً له ،وإعلاء لشأنه فى قوله :"اعلم أن الإنسان جوهر مركب من النفس والبدن ،فالنفس الإنسانية : أشرف النفوس الموجودة فى العالم السلفى ،وبدنه أشرف الأجسام الموجودة فى العالم السلفى ،وتقرير هذه الفضيلة فى النفس الإنسانية هى أن النفس الإنسانية قواتها الأصيلة ثلاث ،وهى : الاغتذاء ،والنمو ،والتوليد ، والنفس الحيوانية لها قوتان : الحساسة سواء كانت ظاهرة أو باطنة ،والحركة بالاختيار . فهذه القوة الخمسة أعنى : الاغتذاء ،والنمو ،والتوليد ،والحس ،والحركة حاصلة للنفس الإنسانية ،ثم إن النفس الإنسانية مختصة بقوة أخرى وهى : القوة العاقلة المدركة لحقائق الأشياء كما هى ،وهى التى يتجلى فيها نور معرفة الله تعالى ، ويشرق فيها ضوء كبريائه وهو الذى يطلع على أسرار عالمى الخلق والأمر ،ويحيط بأقسام مخلوقات الله من الأرواح والأجسام كما هى " .

3- رفعة التكليف :

إن الإنسان هو الكائن الذي اختير لأن يكون مكلفاً ،فقد انتخبه الله تعالى من بين الموجودات ؛ليقوم بمهمة الاستخلاف وفق أوامر ينبغي أن يقوم بها ،ونواه ينبغي أن ينتهي عنها ،ومكنه من إرادة حرة يكون على أساسها المحاسبة على الإيفاء بما أمر به ونهى عنه .

وقد عبر القرآن الكريم عن هذا التكليف بتحميل الأمانة فة قوله تعالى: **{ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا }**الأحزاب / 72

وهذه الأمانة التى حملها الإنسان ذكر المفسرون فى شرحها وتحديد مدلولها أقولاً كثيرة متراوحة بين المعاني ذكر المفسرون فى شرحها وتحديد مدلولها أقولاً كثيرة متراوحة بين المعاني الجزئية وبين المعانى الكلية الذى تشمل جملة من تلك المعانى الجزئية. ومن أبرز المعاني الكلية التى فسرت بها الأمانة معنى التكليف . وفى ذلك يقول الإمام

الرازى :**{إنا عرضنا الأمانة }** أى : التكليف وهو الأمر بخلاف ما فى الطبيعة ،واعلم أن هذا النوع من التكليف ليس فى السماوات ولا فى الأرض ؛لأن الأرض والجبل والسماء كلها على ما خلقت عليه ،الجبل لا يطلب منه السير ،والأرض لا يطلب منها الصعود ، ولا من السماء الهبوط. وإنما وصف التكليف بأنه الأمر بخلافهما في الطبيعة ؛ لأن في تحمله مشقة تعاكس بعض ما خلق عليه الإنسان من الغرائز والطبائع . وقد وضحت هذا المعنى الدكتورة عائشة عبد الرحمن في قولها " أفلا تكون هذه الأمانة هي الابتلاء بتبعة التكليف وحرية الإرادة ومسؤولية الاختيار ؟ بلى ! فكل الكائنات – عدا الإنسان – مسيرة بمقتضى سنن كونية على وجه التسخير والامتثال دون تحمل لتبعة ما تعمل ،والإنسان وحده هو المسؤول عن عمله المحاسب عليه ثواباً وعقاباً ".

وإنما عبر عن التكليف بالأمانة ؛لأن الأمانة هي الحفاظ على ما عهد به ، والتكليف : هو تحميل للأوامر والنواهي بطلب رعايتها والحذار من الإخلال بها ، وذلك بأدائها على وجهها الذي حملت به ،كما هو مطلوب في الأمانة أن يؤدى المعهود به فيما على وجهه ،كما هو ،فقد اشتراك التكليف مع الأمانة في عناصر ثلاثة : الإيداع ،والمحافظة على المودع ،وأداؤه على وجهه .

ويبدو أن المعنى الأسمى الذي تضمنه التعبير بالأمانة على التكليف هو بيان قيمة الإنسان ورفعته من بين سائر الكائنات ؛لأن الأمانة من شأنها أن لا تعرض من بين الناس إلا على من عرف بالتمييز والعلو الخلقي ،كما كان الرسول – صلى الله عليه وسلم – في مكة ،فإنه كانت تودع عنده الأمانات لما كان من رفعته في قومه حتى سمى بالأمين .

وكذلك الأمر بالنسبة للتكليف ،فإنه تحمله الإنسان لرفعته علو شأنه من بين الكائنات المذكورة في الآية ،رغم ما تبدو عليه في ظاهرها من بروز وضخامة إزاء الإنسان ،مما قد يوهم بعلو شأنها ،وفى هذا المعنى يقول ابن عاشور :" شبهت حالة صرف تحميل الأمانة عن السماوات والأرض والجبال ،ووضعها في الإنسان بحالة من يعرض شيئا على أناس فيرفضه بعضهم ويقبله واحد منهم على الطريقة التمثيلية ،أو تمثيل لتعليق علم الله تعالى بعدم صلاحية السماوات والأرض والجبال لإناطة ما عبر عنه بالأمانة بها ،وصلاحية الإنسان لذلك.

وأما التعقيب على حمل الإنسان للأمانة بقوله تعالى : **{إنه كان ظلوماً جهولاً }** فليس منه ما ينقض هذا المعنى المتضمن لرفعة الإنسان ؛لأنه وصف لما في طبيعة الإنسان من الظلم والجهل كمظهرين من مظاهر النوازع النفسية الدافعة إلى اقتراف الشرور فى مقابل النوازع الدافعة إلى أعمال الخير ،وهى المعادلة التي ركب عليها الإنسان

مع تزويده بإرادة الاختيار ،والتي كانت أساساً للتكليف ،وفى التدافع الذ ي فصل فى الإنسان بين هذين النوعين من النوازع قد يحصل أن تتغلب نوازع الشر فيقع الإخلال بالتكليف ،ويقع التضييع للأمانة ، ولكن ذلك ليس مصيراً حتمياً للإنسان فى تدافع نوازعه ،بل هو حالات معينة تحصل له في مسيرة حياته الخلافية باختياره ،وهى لذلك ليست بقادحة في أصل الرفعة التي اقتضاها التكليف .

وقد يبدو لأول وهلة أن التكليف مع ما يقتضيه من المشقة ،ومع ما يقتضيه من إمكان الإخلال به المستلزم لإمكان العقاب ليس فيه من معنى الرفعة والتكريم ما يجعلنا نعد مظهراً لهما ،إلا أنه عند التأمل يتبين أن التكليف من أعظم مظاهر التكريم والرفعة ،وأعظم الأسباب المؤدية إليهما .

إن التكليف مبنى على حرية الاختيار بين طريق الخير الذ ي جاءت تبنيه النواه ي ،وقد ركب الإنسان على ما يمكنه من اختيار أحد الطريقين والمضى فيه ،وهو ما وصفه تعالى بقوله :**{ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها }**(الشمس / 7- 8) وفى قوله :**{وهديناه النجدين }** (البلد / 10) . وبهذا المعنى يكون التكليف مقتضياً لضرب من الجهاد النفس ي ، يبدو في مغالبة عوامل الشر والسقوط ،ونصرة عوامل الخير التواقة إلى الفضيلة.

إن الصعود نحو الأفضل والأكمل هو الذي يشعر الإنسان بقيمته ،ويحقق له تلك القيمة بالفعل ،وعندما يشعر إنسان ما أنه توقف ولن يكتسب شيئاً من أسباب النمو فإنه يؤول به الأمر إلى الاستهانة بنفسه إزاء الوجود مما يؤدى به إلى الانتحار، فالتكليف هو طريق الصعود إلى الأفضل في مسيرة مجاهدة النفس .

لقد ظلت السماوات والجبال والأرض واقفة في سلم قيمتها منذ خلقها الله ،وستبقى كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ،دون أن تكون لها فرصة الاكتمال والتسام ي ،لأنها أبت أمانة التكليف ،أما الإنسان :

فإنه يملك إمكان الترقي والتصاعد المستمر بما يكتب من الحق والخير ائتماراً بأوامر الله ،وانتهاء عن نواهيه فه ي التي تمكنه من تنام ي إنسانيته ،كما تمكنه من استثمار الكون ؛لتحقيق مصالحه ،وهو ما تحقق بوضوح في الحضارة الإسلامية طيلة قرون ارتقى فيها الإنسان درجات في سلم الاكتمال .

إن هذا المعنى من الاكتمال والترقي الذي يأتي بالتكليف يتبدى فيه التكريم الإله ي للإنسان بما يعلى من شأنه ويرفع من قيمته : ففيه إناطة لمصير الإنسان بيده عبر الجهاد ،وليس من يملك مصير نفسه كمن يساق بالقهر إلى

ذلك المصير ،وفيه انفتاح إلى أفق المستقبل ،واندفاع للتحرك نحو الكمال في ذلك المستقبل ،وفيه ترتيب الثواب العظيم على الجهاد الموقف في الامتثال للأوامر والنواه ي ،وهو مظهر عظيم للتكريم الإله ي ، ولذلك قال القاضي عبد الجبار :"اعلم أنه وجه الحكمة في خلق المكلف أنه تعالى خلقه لينفقه بالتفضيل ،وليعرضه للثواب ... وثبت أن الثواب مستحق على وجه التعظيم والتبجيل ".

4– عزة التعبد :

للعبادة في العقيدة الإسلامية مفهوم خاص يتصف بالشمول ،فالله تعالى تعبد الإنسان في كل شؤونه كبيرها وصغيرها معا : إذا شملت الأوامر والنواه ي كل تلك الشؤون "فلا عمل يفرض ولا حركة ولا سكون يدعى إلا والشريعة عليه حاكمة إفراداً وتركيباً ، وبذلك أصبحت عبادة الله هي الهدف الأسمى للحياة الإنسانية كما صوره قوله تعالى :**{وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون }**(الذاريات / 56) .

إن العبادة بهذا المفهوم تصبح توجهاً مستمراً نحو الله بالخضوع والمذلة بحيث يكون الله تعالى هو الهدف المتبغى في كل فكر وفى كل سلوك ،وقد يبدو أن الخضوع والمذلة يتناقضان مع العزة والرفعة ،إلا أن ذلك ليس إلا في ميزات التعامل البشرى ،أما في ميزان الصلة بالله تعالى فإنهما محض العزة والرفعة ،بل إنه لا عزة للإنسان ولا رفعة لشأنه إلا في ظل العبودية لله والخضوع له ، وهو ما نستجليه بالنظر في العبودية لله بمعناها المطلق العام ،كما نتسجليه بالنظر فيها في مظاهرها التطبيقية متمثلة في الضوابط الشرعية لتعامل الإنسان مع الكون أو مع أخيه الإنسان أو مع نفسه .

المصادر والمراجع:

- الراغب الأصفهاني : تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين للراغب الأصفهاني ، تح: عبد المجيد النجار، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1988م.
- الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر، تونس، ط1، 1997 م.
- عبد المجيد النجار: عقيدة تكريم الإنسان وأثرها التربوي، مجلة المسلم المعاصر، عدد 71–72، فبراير 1994.
- عبد المجيد النجار: قيمة الإنسان، دار الزيتونة للنشر، الرباط، المغرب، ط1، 1996م.
- حامد صادق قتيبي: الكون والإنسان في التصوير الإسلامي، مكتبة الفلاح ، الكويت، ط1، 1980.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

كلية أصول الدين

قسم العقيدة ومقارنة الأديان

السنة الثالثة ليسانس

خلافة الإنسان في القرآن الكريم

⟸المفهوم والحقيقة:

مصطلح الخلافة مشتق من: خلفه يخلفه إذ قام بالأمر عنه فهي نيابة أو وكالة عن الغير " إما لغيبة المنوب عنه، وإما لموته، وإما لعجزه وإما لتشريف المستخلف" وعليه، فإن المعنى الذي تتضمنه كلمة الخلافة في قوله تعالى: **{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ، إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ }** سورة الانعام / 165

{ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}- سورة النور / 55

{ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } - سورة البقرة /30

{ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا }- فاطر /39 هي أن الله سبحانه وتعالى قد أناب عنه الانسان في هذا الوجود ليتصرف في مملكته الكونية طبقا لحق الاستخلاف الذي وهبه إياه.

وهذا هو المعنى الذي أشار إليه العلماء، ومنهم "أبو السعود" الذي ذكر في تفسيره أن معنى الخلافة هو " خلافة من جهة الله سبحانه في إجراء أحكامه"، وابن عاشور الذي قال إن: "حاجة البشر إلى إقامة خليفة لتنفيذ الفصل بين الناس في منازعاتهم، إذ لا يستقيم نظام يجمع البشر بدون ذلك (...) إلى أن جاء الإسلام فجمع الرسالة

والخلافة لأن دين الإسلام غاية مراد الله تعالى من الشرائع، وهو الشريعة الخاتمة، ولأن امتزاج الدين والملك هو أكمل مظاهر الخطتين..ولهذا أجمع أصحاب رسول الله بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم على إقامة الخليفة لحفظ نظام الأمة وتنفيذ الشريعة " وقال أيضا : " المراد من الخليفة المعنى المجازي وهو الذي يتولى عملا يريده المستخلف مثل الوكيل والوصي، أي جاعل في الأمر مديرا يعمل ما نريده في الأرض... فالخليفة آدم، والمراد بخلافته قيامه بتنفيذ مراد الله".

وكلمة الخلافة تعبر عن وجود علاقة بين أطراف مختلفة، وعناصر أساسية تتكامل فيما بينها لتحقق مفهوم الخلافة وهي: المستخلف وهو الله والمستخلف وهو الإنسان والمستخلف فيه وهي الأرض، والمستخلف عنه وهو المنهج الإلهي أي مضمون الاستخلاف.

ومن ثم، فالخلافة هي تكليف إلهي للإنسان ليباشر مهمة الإعمار والبناء في الأرض وفق إرادة الله لتتحقق بذلك العبودية الكاملة لله في هذا الكون.

لكن استخلاف الإنسان في الأرض، ومنحه مطلق السيادة على الكون لا يعني أنه مالك له وإن كان سيدا عليه. فهو ليس حاكما بالأصالة، وإنما حاكم بالتفويض، أي أن الله أطلق يده بالتصرف في الأرض للقيام لأعباء أمانة الاستخلاف وهو ما توحي به كلمة الخليفة التي تعني في جملة ما النيابة أو الوكالة.

وعليه، فهو غير مخول أن يسير فيه بهواه منفصلا عن توجيه الله سبحانه وتعالى لأن هذا يتنافى مع طبيعة الاستخلاف. بل يجب أن تكون حركته الحضارية موافقة لأوامر الله ونواهيه، وبذلك تصبح الخلافة: " استئمان على الكون والطبيعة والبشر ولهذا وصفها القرآن الكريم في إحدى آياته بالأمانة فالإنسان الخليفة مؤتمن، وكذلك مجتمع الخلافة، وجوهر الأمانة هو رعاية تلك القيم الخيرة التي ينطوي عليها المشروع الحضاري الإسلامي".

فجوهر الاستخلاف أن يظل الإنسان الخليفة مرتبطا بمن استخلفه ارتباطا مستمرا، وأن يجتهد اجتهادا دائما للاقتراب منه وذلك بالعمل الدائب، والكدح المستديم لترقية ذاته وتنميتها حتى يتمكن من تحقيق مستويات راقية من الاستخلاف.

كما أن الخلافة التي أناطها الله بآدم عليه السلام ليست وقفا على شخصه فقط، وإنما هي تمتد لتشمل النوع الإنساني الذي سيتفرع عن آدم منذ بدء الخليقة إلى نهاية الدنيا، والذي سيكون مكلفا أيضا بحمل مسؤولية

الاستخلاف كما بين ذلك الزمخشري في قوله: " أريد بالخليفة آدم، واستغنى بذكره عن ذكر بنيه كما يستغني بذكر أبي القبيلة في قولك مضر وهاشم".

مما يدل على أن الله سبحانه وتعالى قد أناب الجماعة البشرية في قيادة الكون وإعماره اجتماعيا وطبيعيا. وعليه، فالإنسان وحده هو المكلف بالقيام بمسؤولية الخلافة في الأرض وتحمل أعبائها، وهو الوحيد الذي سيحاسب على ذلك، على الرغم من أنه لا يسكن الأرض وحده، ففيها الجن كذلك، وهم خلق مبتلى ومكلف بالعبادة مثله لكنه لا يمتلك الطاقات والمواهب التي يتميز بها الإنسان لإعمار الأرض فهما –وإن اشتركا في عبادة الله وطاعته– إلا أن الخلافة تبقى من اختصاص الإنسان وحده.

ثم إن الخلافة في الأرض غير مرتبطة بمدة معينة، ولا خاصة بعصر من العصور أو زمن من الأزمان، بل هي صيرورة دائمة تنساب من الإنسان على مر التاريخ منذ ميلاده إلى أن يأذن الله بنهاية العالم.

فهي تبدأ لتنتهي مع عمر لجيل من أجيال الإنسانية وتنتهي لتبدأ مع جيل جديد وهكذا تظل في ديمومة صاعدة. لأن الله قدر للأرض جميعا أن تبقى معمورة وأن يظل الإنسان يكدح فيها حتى توفي أجلها: "فمن سنن الله ونواميسه الكونية في هذه الحياة الدنيا أن تظل هذه الأرض معمورة بأهلها ماضية في أخذ زينتها وزخرفتها، خاضعة لسنة التطور حتى يأتي وعد الله وتحين الساعة المحتومة المحددة لقيام الساعة... فلابد من أمم وجماعات تقود حركتها المعاشية والعمرانية والاجتماعية... تتداول فيما بينها قيادة هذه الرحلة الإنسانية حتى تبلغ مدارها الأخير في علم الله عز وجل".

وخلاصة القول أن عملية الخلافة أو الاستخلاف في القرآن الكريم حركة إنسانية إيجابية، فاعلة، دائبة، مستمرة، ومتناغمة من سنن الأنفس والآفاق يسعى الإنسان من خلالها إلى ترقية حياته الروحية والخلقية، وتسخير كل مظاهر الكون الفسيح والانتفاع بها، وتوجيهها لخدمته وخدمة بني جنسه رغبة في إقامة حضارة إنسانية قي ظل منهج العبودية لله الذي تنتفي معه كل مظاهر الخلل والفوضى والاضطراب.

⟸ المصادر والمراجع:

- ابن منظور: لسان العرب.
- الراغب الأصفهاني: معجم مفردات ألفاظ القرآن، تح، نديم مرعشلي، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.
- جار الله الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل، تح، محمد موسى، دار المصحف، القاهرة، ط 2، 1977م.
- الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر، تونس، ط1، 1997 م.
- محمد العمادي أبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، المطبعة المصرية، القاهرة، 1347م.
- محمد سعيد رمضان البوطي: منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، دار الفكر، دمشق، 1985م
- فاروق أحمد الدسوقي: استخلاف الإنسان في الأرض، دار الدعوة، الإسكندرية، د.ت.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

كلية أصول الدين

قسم العقيدة ومقارنة الأديان

السنة الثالثة ليسانس

خلافة الإنسان في القرآن الكريم

▪ بين العبادة والعمارة

أوضحنا آنفا أن الخلافة تعني خلافة الإنسان عن الله تعالى لتنفيذ مراده في الأرض واجراء أحكامه فيها، ائتمارا بما أمر وانتهاء مما نهى، وقد بين بذلك الحق سبحانه في آيات متعددة.

وهذه المهمة والغاية تقتضي أن يكون الهم الأكبر للخليفة (الإنسان) ترقيه نحو مستخلفه (الله) وحصر همه وجهده في الاقتراب منه، وذلك بالعمل الدائب والكدح المستديم لترقية ذاته وتنميتها حتى يبلغ الغاية التي ذكرها الله تعالى في قوله: **{ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ }**سورة الانشقاق/6.

وهذا التكامل والترقي في اتجاه الله تعالى لا يكون إلا عبر منهاج العبادة، ولذلك قال الحق تعالى: **{ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }** سورة الذاريات/56، ويكون شاملا للعنصرين المركب منهما الإنسان وهما العنصر الروحي والعنصر الترابي المادي، ويكون مسرح هذا الترقي الأرض التي هيأها الله لتكون صالحة لطبيعة تكوين الإنسان المزدوجة إذ قال: **{ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً }** سورة البقرة/ 30، وبالتالي تكون ممارسة الخلافة بمنهاج العبادة لتحقيق العبودية، وبالتعامل مع الأرض (والكون) لعمارة الأرض ومن ثم تحقيق السيادة؛ ومعنى ذلك أن الخلافة تقوم على جانبين أساسيين هما العبادة والعمارة.

فما معنى العبادة؟ وكيف تتحقق العبودية؟ وما هي العمارة؟ وكيف تتحقق السيادة؟

1 العبادة:

أما العبادة فمعناها الخضوع لله تعالى بالتسبيح اعترافا بكماله سبحانه وإظهارا لعظمته، وهذه الإنابة والخضوع

تصدر عن سائر المخلوقات لقوله تعالى: { **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا** } سورة الإسراء/44.

ولكن تسبيح الإنسان يخالف تسبيح سائر المخلوقات الأخرى، إذ الإنسان يسبح بحمد ربه بإرادته واختياره، أما سائر الكائنات الأخرى فهي مجبرة، وما خلقت إلا لذلك شهادة لكماله تعالى، في خضوعها لأجل أن يكون الإنسان شاهدا لكمال ربه، لقوله تعالى: { **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ** } سورة هود/7؛ والابتلاء هنا اختبار الإنسان فيما يكون عليه من الشهادة الواعية بالكمال الإلهي

وهذا يعني أن الابتلاء والاختبار علة الخضوع، إذ بالخضوع والإنابة يشهد الإنسان على كمال ربه وعظمته، وهذا ما عناه الله جل جلاله حين قرن الشهادة بالكمال الإلهي بالابتلاء في الآية السابقة الذكر.

وبالتالي كان معنى عبادة الإنسان لله تعالى هو "إسلام النفس في كل ما يفعل الإنسان ويذر لما يريده الله تعالى ويرضاه عبر الالتزام الكلي بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه".

ومعنى ذلك أن مجال العبادة هو الذات الإنسانية، بحيث تهدف (العبادة) إلى التغيير في مجال النفس، إما للمحافظة على الذات الإنسانية والسمو والعلو بها نحو الأفق الإلهي الأعلى لتقتبس منه مضمون الخلافة أمرا ونهيا، أي القرب من الله تعالى بتطبيق شرعه، وهو معنى العبودية لله تعالى وحده؛ أو تدمير النفس وبالتالي الهبوط والتسفل إلى أسفل السافلين، لعدم الالتزام بشرع الله تعالى، وهو الخضوع لغير الله تعالى.

ولا يتحقق ذلك الترقي والعلو، بناء على ما تقدم، إلا اذا كان وفقا لتكاليف الشريعة الإسلامية من الأوامر والنواهي. وبالتالي كان منهج تحقيقي العبودية لله ثابتا بنبرة الشريعة وكاملا بكمالها وتاما بتمامها. مصداقا لقوله جل جلاله: {**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** } سورة المائدة/3.

وعليه كانت حركة –الذات الإنسانية– هذه في مجال تحقيق العبودية حركة رأسية عمودية، (إما علو وارتفاع بالتوحيد أو هبوط وانحطاط بالكفر)، في مجال تحقيق العبودية.

2- العمارة:

وأما العمارة – كما يقول الراغب الاصفهاني فهي: " تحصيل ما به تزجية المعاش لنفسه وغيره"، أي هي السعي في الحياة الدنيا والقيام بما به استقامة حياة الإنسان واستمرارها وصلاح معاشه من مأكل وملبس ومسكن.

وتحصيل ذلك يكون بمنهج ذو ركيزتين:

-أولهما: يكون تحقيق العمارة من الوجه المباح وفق شرع الله تعالى، إذ يقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: " **من طلب الرزق فهو في جهاد، ومن لم يكن على ذلك فسعيه يكون هباءً منثوراً**". وهذا ما بينه الله جل جلاله في قوله: الكهف/ 103-104، وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: " **إن الله يحب أحدكم إذا عمل عملا أن يتقنه**"، بحيث يكون كل عمل وسعي يقوم به الإنسان لله تعالى وفق شرعه سبحانه وابتغاء مرضاته والفوز بلقائه جل جلاله، وبالتالي يكون كل سعي الإنسان وعمله عبادة، مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم: " **إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته لله ورسوله فهجرته لله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته لما هـ اجر إليه**". فهي إذن ركيزة وحيية إلهية متمثلة في شرع الله تعالى.

-ثانيهما: هي العمل وفق منهج علم الإنسان بالأشياء والأحياء والسنن الإلهية في الكون، وبناء على الفعالية الإنسانية وما وهبه الله تعالى من العقل ووسائل الإدراك وحرية الإرادة، التي يدرك بها جميعا ويكتشف القوانين الكونية (العلمية) (أو سنن الله تعالى) في الكون والمجتمع (الآفاق والأنفس) وهو ما يسمى بالتسخير المعرفي للكون، وبناء كذلك على طبيعة الأشياء (الكون) بحيث يستغل الإنسان كل المخلوقات لخدمته -باعتباره يباشر مهمته في هذا الكون وعلى هذه الأرض- وفق ذلك العلم المكتسب، وهو ما يسمى بالتسخير المادي للكون. فهي إذن ركيزة ذاتية متمثلة في مؤهلات الإنسان المعرفية.

وبناء على هذا المنهج المزدوج في تحقيق العمارة يحقق الإنسان سيادته على الكون وعلى كل شيء سوى الله تعالى، ويكون ذلك خلال الأجيال والأزمان (أي في الحياة الدنيا)، في حركة أفقية (تقدما أو تأخرا أو توقفا) حسب الأخذ بأسباب التحصيل العلمي وتسخير الأشياء وإتباع والتزام شرع الله تعالى. فالعمارة إذن حركة الإنسان في مجال تحقيق السيادة.

وبالتالي تكون الخلافة –وهي غاية ومهمة الإنسان في الأرض– عبودية لله عز وجل وحده وسيادة على كل ما في الكون من أشياء وأحياء سوى الله تعالى، فلا يمكن تحقيق السيادة دون العبودية لله، كما لا يمكن للإنسان أن يكون عبد الله وحده دون أن يكون سيدا على الكون، وهذا ما جمعه الراغب الأصفهاني في قوله: " لا يصلح لخلافة الله ولا يكمل لعبادته وعمارة أرضه إلا من كان طاهر النفس... والذي تطهر به النفس حتى تترشح لخلافة الله تعالى وتستحق بها ثوابه هو العلم والعبادات الموظفة التي هي سبب الحياة الأخروية".

وعليه كانت خلافة الإنسان لله تعالى في الأرض هي الغاية القصوى أو غاية الغايات لوجوده.

3– علاقة الخلافة بالتوحيد:

وهذا الأمر لا يتعارض مع قولنا بأن التوحيد هو أصل وأساس الإنسان في الإسلام وغايته ومنتهاه والمقوم الأساسي لماهيته،

وذلك: **–أولا:** إذ عرفنا –إلى جانب ما ذكرناه سابقا وبناء عليه– إن الخلافة هي تحديد لمركز الإنسان الوجودي بين المخلوقات باعتبار أفضليته من حيث الحرية والتكريم فهو سيد (كفرد وكمجتمع) في علاقته بالكون، وعبد لله تعالى وحده لا شريك له في علاقته (كفرد وكمجتمع) بالله تعالى، وبالتالي كانت الخلافة حقيقة إنسانية، وجودية ومعرفية في آن واحد.

فهي حقيقة إنسانية من حيث علاقتها بالإنسان وهو الم عني بها، ووجودية من حيث الوجود ، الوجود الإنساني وجود أبدي يشمل الحياة الدنيا والحياة الأخروية إذ يقول الحق سبحانه وتعالى: **{ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا، أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا، ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا، إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا، خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا }** سورة الكهف 103–108 وقوله كذلك: **{ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }** سورة النور/55 هذا على مستوى المجتمع والأمة. أما على مستوى الفرد فنجد مثلا قصة الرجلين الذي يمتلك أحدهما

جنتين، وذلك في سورة الكهف (الكهف 32-44). فنلاحظ جلال هذه الآيات كيف أن الحياة الأخروية هي امتداد للحياة الدنيوية فكان وجود الإنسان أبدي إن خيرا فخير وان شرا فشر.

وما كون الخلافة حقيقية معرفية فذلك من حيث كون عقيدة المسلم في الخلق قرآنية إذ يكون تصوره حول الموجودات والإنسان، والعلاقة بين الكون والإنسان وبين الموجودات فيما بينها وبين الكون والإنسان والله تعالى – وما يترتب عن ذلك– كل ذلك يكون وفق التصور الإسلامي.

–ثانيا: أما التوحيد فهو إفراد الله تعالى بالألوهية والربوبية، ويقتضي ذلك من الإنسان أن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا، وعبادة الله وحده تعني الخضوع له وحده دون سواه من الموجودات فيحقق العبودية لله تعالى، والاستعلاء والسيادة على دونه من المخلوقات، وبالتالي يكون التوحيد في صيغته (لا إله إلا الله) تعبير عن حقيقة الكون الكبرى (من حيث الأصل والأساس والغاية والهدف).

ولهذا عرف التوحيد بأنه حقيقية إلهية وجودية ومعرفية، أي عقيدة المسلم في الله تعالى قرآنية.

وهذا من الناحية الاعتقادية (النظرية)، أما من الناحية الع ملية فتحقيق التوحيد في الحياة الإنسانية يقتضي اعتبار خلافة الإنسان لله في الأرض غاية قصوى وهدفها أسمى للحياة الفردية والاجتماعية.

ومعنى ذلك يجب على الإنسان المسلم الموحد (فردا ومجتمعا) أن يؤسس الحياة الإنسانية على التوحيد، أي يجب أن تنبثق الأخلاق وأنظمة الحكم، والتربية والأسرة والاقتصاد والتشريع و التخطيط... الخ، من عقيدة التوحيد.

وبذلك يكون التوحيد هو المنهج العملي للحياة الإنسانية متمثلا في شرع الله تعالى، فنصل بذلك إلى نتيجة، وهي أن حقيقة التوحيد لها وجهين:

الأول– عبودية: بمعنى الإيمان بالله تعالى وحده وعبادته، وهذا يستلزم سيادته على كل شيء في الكون.

الثاني – سيادة: يعلو الإنسان على كل شيء بالإيمان بعقيدة تكريم الإنسان وكونه خليفة الله وتسخير الكون، وهذا يستلزم كذلك أن يكون (الإنسان) عبدا لله تعالى وحده. ومن ثم كان التوحيد علة ومعلولا في آن واحد، وهو نفس الأمر بالنسبة للخلافة كما ذكرنا فكان تحقيق الخلافة هو تحقيق التوحيد. وبالتالي يمكننا القول إن الخلافة والتوحيد حقيقتان متوازيتان متفقتان لا يتقابلان ولا يتعار ضان أبدا، ومن ثم يمكننا إدراك العلاقة بين قوله تعالى في الآيات التالية: **{ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً }** وفيها تحديد لمهمة ووظيفة وغاية الإنسان، القصوى

والوجودية، وقوله: { **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** } وهو تحديد للمنهج العملي للحياة الإنسانية أي الخلافة، وقوله تعالى: "هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها"، وهي تحديد لمهمة وغاية الإنسان القريبة والحياتية، وكل ذلك للترقي نحو الله تعالى.

إذن فالغاية والحكمة من خلق الإنسان هي الخلافة التي تعني العبادة المحققة للتوحيد.

⇐ المصادر والمراجع:

- الراغب الأصفهاني: معجم مفردات ألفاظ القرآن، تح، نديم مرعشلي، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.
- الراغب الأصفهاني: الذريعة إلى مكارم الشريعة، تق: عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، 1979م.
- جار الله الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل، تح، محمد موسى، دار المصحف، القاهرة، ط 2، 1977م.
- الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر، تونس، ط1، 1997 م.
- عبد المجيد النجار: الإنسان والكون في التربية القرآنية، النشرة العلمية للكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين، الجامعة التونسية، تونس، عدد8، 1985م.
- عبد المجيد النجار: خلافة الإنسان بين الوحي والعقل: بحث في جدلية النص والعقل والواقع، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، هيرندن فيرجينيا، ط3، 2005م.
- محمد سعيد رمضان البوطي: منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، دار الفكر، دمشق، 1985م
- فاروق أحمد الدسوقي: استخلاف الإنسان في الأرض، دار الدعوة، الإسكندرية، د.ت.
- محمد المبارك: نظام الاسلام: العقيدة والعبادة، دار الفكر، بيروت، ط4، 1984م .
- محاضرات عبد المجيد النجار وصالح نعمان.